

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي أبان للعباد منهج التربية القويمة في قرآنه المجيد ، وأوضح للعالمين مبادئ الخير والهدى والإصلاح في أحكام شرعه الخفيف .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله للإنسانية مؤدباً ، وأنزل عليه تشريعاً يحقق للبشرية أسمى آيات عزها ومجدها ، وأعظم غايات سؤدها ومكانتها ، ورفعها واستقرارها . وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار ، الذين أعطوا الأجيال المتعاقبة نماذج فريدة في تربية الأبناء وتكوين الأمم . وعلى من نهج نهجهم ، واقتفى أثرهم بإحسان الى يوم الدين ، وبعد :

١ - فمن فضل هذا الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج شامل قويم في تربية النفوس ، وتنشئة الأجيال ، وتكوين الأمم ، وبناء الحضارات ، وإرساء قواعد المجد والمدنية .. وما ذاك إلا لتحويل الإنسانية التائهة من ظلمات الشرك والجهالة والضلال والفوضى ، إلى نور التوحيد والعلم والهدى والاستقرار . وصدق الله العظيم في محكم تنزيله : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾

٢ - ويكفي شريعة الإسلام فخراً وفضلاً أن شهد الخصوم بنائها واستمرارها .
واعترف الأعداء بحيويتها وخلودها ، وإليكم - يامن تستهويكم شهادات الغربيين -
طائفة من أقوالهم ، وطاقة من أريج مدحهم ، وطيب ثنائهم ؛ لتعرفوا ماذا يقول
المنصفون من غير المسلمين عن رسالة الإسلام الخالدة ، وتعاليمه السامية ؟ :

■ نقل الأستاذ (غوستاف لوبون) عن الأستاذ (لييري) قوله :
(لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة الحديثة عدة
قرون) .

■ وقال (لين بول) في كتابه (العرب في إسبانيا) : (فكانت أوربة الأمية تزخر
بالجهل والحمران ، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم ، وراية الثقافة في
العالم) .

■ وقال (إلياس أبو شبكة) في كتابه (روابط الفكر والروح بين العرب
والفرنجية) : (إن زوال الحضارة العربية كان شؤماً على إسبانيا وأوربا ، فالأندلس
لم تعرف السعادة إلا في ظل العرب ، وحالما ذهب العرب حلّ الدمار محل الثراء
والجمال والخصب ..) .

■ وقال (سيديلوت) في كتابه (تاريخ العرب) : (كان المسلمون في القرون
الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ،
وتسربت عنهم إلى أوربة ، فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها) .

■ والكثير من المثقفين يعلمون شهادة الفيلسوف الانكليزي المشهورة
(برناردشو) ، اسمعوا إلى ما يقوله بالحرف الواحد :

(لقد كان دين محمد موضع تقدير سام لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة ، وإنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الانسانية ، وإن رجلاً كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته ..) .

فهذه الأقوال ، وأقوال غيرها ، تعطي لكل ذي فهم وبصيرة البرهان تلو البرهان على ما انطوى عليه نظام الإسلام من قوة دفع حضارية ، ومبادئ تطويرية شاملة ، وتعاليم حيوية خالدة ... والفضل كل الفضل بما اعترف به المنصفون وشهد به الأعداء :

شهد الأنام بفضله حتى العدا

والفضل ماشهدت به الأعداء

٣ - وإذا كانت الشريعة الإسلامية تتصف بالريانية ، وتتسم بالشمول ، وتختص بالتجدد والاستمرار ، فهل مبادئها الشاملة ، ومعطياتها المتجددة .. فكرة مجردة في الأذهان ، ونظريات مدونة في الكتب ، أم هي متحققة في أمة تلمسها الأيدي ، وترها العيون ؟ .

فلنحل الجواب إلى شهيد الإسلام سيد قطب - رحمه الله - ولنسمع منه مايقوله : (وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه - عليهم رضوان الله - صوراً حية من إيمانه ، تأكل الطعام ، وتمشي في الأسواق ، يوم صاغ من كل منهم قرآناً حياً يدب على الأرض ، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام ، يراه الناس فيرون الإسلام .

إن النصوص وحدها لاتصنع شيئاً ، وإن المصحف وحده لايعمل حتى يكون رجلاً ، وإن المبادئ وحدها لاتعيش إلا أن تكون سلوكاً .

ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يلقي مواعظاً ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطباً ، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة ؛ أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم ، وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي ، وتراهم العيون ...

ولقد انتصر محمد بن عبد الله ﷺ ، يوم صاغ من فكرة الإسلام شخصاً ، وحول إيمانهم بالإسلام عملاً ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً ، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق ، إنما طبعها بالنور على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي ، وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله (١) .

ومن أراد أن يعرف شيئاً عن تربية الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ، ومن جاء بعدهم بإحسان ؛ فليستقرئ التاريخ ليعلم الكثير عن جليل ما أثرهم . وكريم فضائلهم ..

فهل عرفت الدنيا أنبل منهم وأكرم ، أو أرفأ أو أرحم ، أو أجل أو اعظم ، أو أرقى أو أعلم !؟

ويكفيهم شرفاً وفخراً وخلوداً أن يقول القرآن العظيم في حقهم : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود .. ﴾
(الفتح : ٢٩)

ويقول : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالألسان هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .
(الذاريات : ١٧ - ١٩)

(١) من كتاب (دراسات إسلامية) للشهيد سيد قطب فصل (انتصار محمد بن عبد الله) .

ويقول : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .
(الحشر : ٩)

ويقول : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ﴾ .
(الاحزاب : ٢٣)

هذا غيض من فيض مما نزل في كريم مآثرهم ، وجميل محامدهم ، وقد تحقق بهم فعلاً إقامة المجتمع الفاضل الذي كان حلم المفكرين ، وأمنية الفلاسفة منذ القدم .. وكيف لا ، والقاضي يجلس بينهم سنتين ولا يتخاصم إليه اثنان ؟ ولماذا يتخاصمون وبين أيديهم القرآن ؟ ولماذا يختلفون وهم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ؟ ولماذا يتباغضون والإسلام يأمرهم بالمحبة والإحياء ، ويحضهم على التعاطف والإيثار؟

وإليكم مقاله الصحابي الجليل (عبدالله بن مسعود) رضي الله عنه في تعداد محامدهم وفضائلهم ، ووجوب التأسي بأفعالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة ... (من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) .

٤ - وظلت الأجيال المسلمة عبر القرون تستقي من معين فضائلهم ، وتستضيء بنور مكارمهم ، وتنهج في التربية نهجهم ، وتسير في بناء المجد سيرهم ... حتى العصر الذي انحسر فيه عن المجتمع الإسلامي حكم الإسلام ، وزالت في الأرض معالم الخلافة الإسلامية .. واستطاع أعداء الإسلام أن يصلوا إلى هدفهم الخبيث

وغرضهم الدفين في تحويل العالم الإسلامي إلى أمم متناحرة ، ودول متخصصة متنازعة .. تتقاذفهم الأهواء ، وتجتذبه المظالم ، وتفرقهم المبادئ . وينساقون وراء الشهوات والملذات ، ويتخبطون في أوحال التحلل والإباحية ... ويسيروا بلا هدف ولا غاية ، ويعيشون من غير ماسعي إلى مجد ولا وحدة ولا كيان ... تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، وتظنهم قوة ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، حتى إن كثيراً من رجالات الإصلاح ، وأرباب الدعوة إلى الله قد اعتراهم اليأس ، واستحوذ عليهم القنوط ، اعتقاداً منهم أن لا سبيل إلى إصلاح هذه الأمة ، وأن لا أمل إلى استعادة مجدها ، واسترجاع عزتها وكيانها .. بل وجد من هؤلاء الدعاة من ينادي بالعزلة الكاملة ، والتزام أحلاس البيوت ، لظنهم أن هذا العصر هو آخر الزمان ، وآن الأوان أن يخرج المسلم بنفسه بوضع غنيمات يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن^(١) حتى يدركه الموت .

وهذا التصور اليائس للإصلاح ناتج عن أسباب ثلاثة :

- (أ) ناتج عن الجهل بطبيعة هذا الدين .
- (ب) وناتج عن حب الدنيا وكراهية الموت .
- (ج) وناتج عن الجهل بالغاية التي من أجلها خلق المسلم .

(أ) ويوم يفهم المسلمون أن الإسلام دين القوة ، وأن شعاره في ذلك :
﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... ﴾

(الأنفال : ٦٠)

(١) روى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ وسلم قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » . الحديث محمول على من يفتن بدينه ويجبر على الردة ، أما أنه مادام يوجد مسلمون يؤدون الشعائر ، ويطبقون على أنفسهم أحكام الإسلام ، ومادام أنه ثمة مجال للتعلم ، وتحقيق العز الإسلامي فإنه يحرم على المسلمين العزلة والانزواء ، لأنه مالا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب ، لهذا وجب على المسلمين اليوم أن يحققوا حكم الله . ويقوموا دولة الإسلام ، وإلا فهم آثمون .

ويوم يفهمون أن الإسلام دين العلم : العلم الشرعي والعلم الكوني على السواء
 وأن شعاره في ذلك : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ .
 (طه : ١١٤)

ويوم يفهمون أن الإسلام اعتبر الإنسان خليفة الله في الأرض ليملك زمامها ،
 ويستخرج دوائها ، ويطلع على كل سر فيها ، وأن شعاره في ذلك : ﴿ وهو الذي
 جعلكم خلائف الأرض ﴾ .
 (الأنعام : ١٦٥)

ويوم يفهمون أن الإسلام كرم الإنسان ، وفضله على كثير مما خلق الله :
 ليضطلع بمسئوليته ، ويؤدي المهمة الموكلة بها ، وأن شعاره في ذلك : ﴿ ولقد كرّمنا
 بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على
 كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ .
 (الإسراء : ٧٠)

ويوم يفهمون أن الإسلام يعتبر الإنسان مسؤولاً عن عقله ، ومسؤولاً عن حواسه
 إذا هو قام بدور الإهمال والتعطيل ؛ وأن شعاره في ذلك : ﴿ ولا تقف ما ليس لك
 به علم ؛ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ .
 (الإسراء : ٣٦)

ويوم يفهمون أن الإسلام اعتبر هذا الكون كله مسخراً للإنسان ، ليستعمله في
 خدمة العلم ، وخدمة الإنسانية ، وأن شعاره في ذلك : ﴿ وسخر لكم مافي
 السموات وما في الأرض جميعاً منه ... ﴾ .
 (الجاثية : ١٢)

ويوم يفهمون أن الإسلام دين التأمل والتفكير في خلق السموات والأرض للوصول إلى الحقائق الثابتة ، وأن شعاره في ذلك : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ... ﴾ .

(يونس : ١٠٢)

ويوم يفهمون أن الإسلام دين العمل والنشاط والحيوية ، وأن شعاره في ذلك : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

(الملك : ١٥)

ويوم يفهمون أن الإسلام يحرم اليأس ، وينهى عن القنوط وأن شعاره في ذلك : ﴿ إنه لا يئأس من رُوح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

(يوسف : ٨٧)

ويوم يفهمون أن الإسلام دين العزة والكرامة ، فيجب أن يتوجوا رؤوسهم بها ، ويرفعوا في العالم لواءها ، وأن شعاره في ذلك : ﴿ والله العزة والرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

(المنافقون : ٨)

يوم يفهم المسلمون عن دينهم كل هذا ، ويعرف الناس - وعلى رأسهم الدعوة إلى الله - طبيعة هذا الدين ، وحقيقة هذا الإسلام فلا يمتلكهم يأس ، ولا يدب في نفوسهم قنوط .. بل ينطلقون في مضمار الدعوة والإصلاح والبناء .. ليعودوا- كما كان سلفهم - أساتذة للدنيا ، وهداة للأمم ، ومنارات متلازمة في ظلمات الحياة .. فتستقي البشرية من علومهم ، وتنهل من معين معارفهم وحضارتهم على مر العصور ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(ب) ويوم يتحرر المسلمون - وعلى رأسهم العلماء ورجال الدعوة إلى الله - من حب الدنيا ، والركون إليها ، والتمتع الزائد بلذاتها وطيباتها .. ويجعلون هداية الناس ، وإصلاح المجتمع ، والسعي إلى إقامة حكم الله في الأرض .. أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، وغاية الغايات ، ومنطلق العزائم والنيات .

ويوم يتحررون من الجبن ، والخوف ، وكراهية الموت ، ويوقنون من قرارة نفوسهم أن الأزواق بيد الله ، وأن الذي يضر وينفع هو الله ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوهم بشيء لم ينفعوهم إلا بشيء قد كتبه الله لهم ، وإن اجتمعوا على أن يضروهم بشيء ، لن يضروهم إلا بشيء قد كتبه الله عليهم .

يوم يوقن المسلمون بهذا ، ويتحررون من أسباب الضعف والوهن ، فعندئذ ينطلقون في ميادين الدعوة إلى الله ، وفي مجالات التربية والتوجيه والإصلاح .. غير هيايين ولا وجلين ، مبلغين رسالات ربهم لا يخشون أحداً إلا الله . بل واثقين كل الثقة أن الله سبحانه سينصرهم ، ويمكن لهم في الأرض ، ويبدلهم من بعد خوف أمناً ، ومن بعد ذلة عزاً ، ومن بعد تفرق وحدة . وما ذلك على الله بعزيز ، إن هم صَحَّحوا النيات ، وعقدوا الهمة والعزيمة ، وتحرروا من اليأس والخوف وحب الدنيا !! ...

★ ★ ★

(ج) ويوم يعرف المسلمون أنهم خلقوا في الحياة لأجل هدف سام ، وغاية نبيلة ، هذه الغاية قد قررها الله لهم في محكم تنزيله حين قال :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾

(الذاريات : ٥٦)